

التأليف في الأندلس للعلوم الصلبة (الطب أنموذجا)
Authorship of Solid Science in Al-Andalus
(Medicine as a Model)

حسين عزيزي*

جامعة عمّار ثليجي بالأغواط / الجزائر

h.azizi@lagh-univ.dz

تاريخ القبول: 2025/10/06

تاريخ الاستلام: 2022/04/06..

ملخص .

لم يكتف الأندلسيون بما وصل إليهم من كتب في مختلف العلوم، بل كانت لهم جهودهم الخاصة في مجال الإنتاج العلمي، فقد اشتهروا بغزارة التأليف في شتى العلوم وقد ساعدتهم في ذلك تقدير الخلفاء والأمراء للعلم والعلماء، وقد وُصِفُوا بأنهم أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب وحبهم الشديد للتأليف في مصنفاتهم التي كانوا يقتنون أصولها ويفضلون شراءها على العديد من أنواع الألبسة والأطعمة، إلى جانب تبايهم بالجمع والتصنيف والتأليف في مختلف العلوم التي برعوا فيها، ومن بين هذه العلوم الطب، الذي سنتعرف عليه في تلك البدايات الأولى لحركة التأليف والتي صنعت ذلك الفارق العجائبي في المسيرة العلمية لعلماء الأندلس لاحقاً، لما لحقها من مشكلات التبعية المشرقية ومحاولة التنصل منها، وقد تمت الاستعانة بالمنهج التاريخي لما رأينا أنه الأجدر لمثل هذه الدراسة التي نتم في التعرف على طبيعة الأبحاث السابقة، ونقدتها بصورة بناءة؛ من خلال توضيح من إيجابياتها وسلبياتها، مع إبداء وجهة نظر الباحث في ذلك.

تروم هذه الدراسة لمسائل البدايات الأولية في التأليف الأندلسي الطبي ومدى تأثير هذه الحقبة لاحقاً في الخروج جذرياً من إشكالية الهيمنة المشرقية على علوم أطباء الأندلس خاصة، والعلوم الأخرى بصفة عامة بعد ذلك...، أملاً منا أن تكون هناك دراسات جادة تحافظ على موروثنا العربي والإسلامي.

كلمات مفتاحية: ، أندلس، طب، منهج تجريبي، معرفة طبية، صناعة طبية.

Abstract:

The Andalusians were not satisfied with books they had achieved in different sciences, but they had efforts in scientific production field and have become famous authorship in several sciences and have been helped by the princes, caliphs' appreciation to science and scientists. They have been described as the most in maintaining books treasury, adoring authorship of their works they used to acquire their assets and prefer to buy them rather than food, clothes. Besides, their donating of collection, classification, authorship in different sciences they have done. Medicine among them that will be discussed in those beginnings of authorship movement which has made that difference in Andalusians scientists' scientific career later. Subsequently, problems of [oriental subsidiarity](#) and trying to disavow them. A historical approach has been used as the useful one to identify the previous studies' nature, criticizing it constructively through their negatives, positives' clarification, with researcher's point of view.

This article seeks to discuss the initial beginnings of medical Andalusian authorship, its impact in avoiding the oriental subsidiarity issue on sciences of Andalusians doctors specifically, and other sciences generally. Hoping for future essential studies to preserve our Arabic and Islamic legacy.

Keywords: Andalus; Medicine; Empirical approach; Medical knowledge; Medical industry.

تكمن أهمية هذه الدراسة في استنطاق لجهود حركة التأليف لدى الأندلسيين في العلوم الأساسية أو العلوم الصلبة، بالرغم من أسبقية حركة التأليف المشرقية نظيرتها الأندلسية بنحو قرن ونصف عمدت فيها للخروج من تلك الهيمنة والظهور بمظهر المتمكن وليس الخاضع، والمجدد وليس المقلد. وقد شكلت العلوم الصلبة، كالفيزياء والكيمياء والتنجيم، والرياضيات، والطبيعات وعلى رأسها الطب، أحد أبرز مظاهر الفكر الأندلسي بفضل المكانة التي احتلها على قمة هرم العلوم التجريبية، من حيث اعتماده على مقومات وقواعد ثابتة في الطرح والتجريب والتحصيل العلمي الثابت والبعيد عن التخمين والسفسطة، وقد عرف تطور الطب بعدا زمنيا ملحوظا عبر المسار التصاعدي الذي كان علماء الأندلس ينتهجونه في بحوثهم الحديثة وهذا ما أهّلهم للسبق في التجديد، وتبوء المكانة المرموقة في المجتمع الأندلسي وخارجه، وكل هذا ساعد في ظهور مدرسة طبية أخذت على عاتقها الجمع بين النقد كتأصيل للعلوم والتجريب وبين البحث والتصحيح كنقاء للمنهج العلمي في تعامله مع الأمراض والأوبئة.

إننا بهذه الدراسة نحاول من خلالها تبين أثر حقبة الأندلس وعلمائها وحركة التأليف في الفترة التي امتدت بين القرنين السادس والسابع الهجريين، ومدى الأثر الذي حدث ضمن حركية التأليف و تلاقح العلوم.

يتوجّه الاهتمام في هذه الدراسة إلى ثلاث نقاط أساسية من خلالها يمكننا الوصول إلى:

1. النظر إلى تراثنا العربي الأندلسي نظرة الشوق والتفاؤل في بعثه من جديد عبر دراسات هادفة تحدم مسار الحياة المعاصرة .
2. معرفة النشاطات العلمية التي برع فيها العلماء الأندلسيون ومدى تأثيرهم وتأثيرهم في الحياة آنذاك .
3. بحث لسمات منهج التأليف لعلماء الأندلس في مجال التخصص في العلوم الصلبة وعلى رأسها الطب.

2. تأثير المشرق وحركية التأليف في الأندلس.

يقول القاضي أحمد بن صاعد الأندلسي في حديثه عن الأندلس وقد "كانت في الزمان القديم خالية من العلم لم يُشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به ... إلى أن افتتحها المسلمون في شهر رمضان سنة اثنين وتسعين من الهجرة فمأت على ذلك أيضا لا يُعنى أهلها بشيء من العلوم إلّا بعلوم الشريعة وعلم اللغة إلى أن توطّد الملك لبني أمية بعد عهد أهلها بالفتنة، فتحرك دُؤو الهيم منهم لطلب العلوم وتنبّوها لإشارة الحقائق..."¹، ولم يكتف علمائها بما وصل إليهم آنذاك من المشرق عن طريق مؤلفات وعلوم عديدة قد سُبِقوا إليها، بل كانت لهم جهود تجديدية خاصة في مجالات عديدة، قد برعوا فيها وألّفوا واشتهروا من خلالها، وكان العامل المهم لازدهار التأليف في هذه العلوم الأمراء والخلفاء المحبّون للعلم والعلماء، وذلك التشجيع لحركة التأليف التي كانت تشهدها الأندلس، ومدى الخطوة التي نالها العلماء لدى الأمراء وما يتلقون من تكريم وتشريف وتشجيع كان سببا في ذلك الإقبال على مختلف العلوم دراسة وتمحيصا وإبداعا، وأضحى من أجل هذه العلوم عندهم علم الطب، "وقد كان العلماء الأطباء يُعَفَّوْنَ من التزامات عديدة لدى الأمراء من أجل التفرغ لمهنتهم والبراعة في علومهم، وحتى لا يكون لهم شغل يشغلهم سوى ما يبرعون فيه من تلك العلوم، وهذا ما نجده - مثلا - مع الفقيه عبد الله بن مغيث (ت 352هـ/963م) المعروف بابن الصفار"²، فقد أعفِي من الخروج للجهاد مقابل تأليفه للكتب، ومثلها تقديم العطايا إلى المؤلفين والمشتغلين

¹ . كتاب طبقات الأمم، القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي، نشره: الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، لبنان، 1912م، ص: 69.

² . مطمح الأنفس، ابن خاقان أبو الفتح نصر بن عبد الله، تح/ محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1983، ط1، ص: 289-290.

على ترجمة العلوم، مثل ما نجده عند أحمد بن عبد الله الأشبيلي (ت 401هـ/1011م) "والذي ألّف للخليفة الحكم كتاب (الإستيعاب) وقد شاركه في تأليف هذا الكتاب أبو بكر محمد بن عبد الله القرشي فأعطاهما الخليفة جائزة عظيمة وولّاهما خطة الشورى"¹.

1.2 براعة الأندلسيون في التأليف.

كما هو معروف فإنّ العلوم الأساسية التي برع فيها الأندلسيون إنّما قُصد بها مجموع العلوم التي تكشف لنا العالم الطبيعي، وقد تشمل الفيزياء والكيمياء والأحياء والفلك والجيولوجيا والطب وعلم الأرصاد الجوية، وقد برع الأندلسيون في هذه المجالات وتوصّلوا لإيجاد بعض العمليات التي ساهمت في تطوير هذه الأنواع من العلوم، وقد شكّل الطبّ توجهها مُهما تمكنوا من خلاله في معرفة الشؤون الصحيّة وكيفية ممارستها ضمن قواعد أساسية تجمع بين التنظير الطبي والصناعة الطبية ضمن منهج تجريبي محكم يستند إلى القواعد الثابتة بعيدا عن التنجيم و التخمين اللذين كانا سائدين في عصور سالفة.

يقول أحمد بن صاعد الأندلسي (ت. 462هـ/1069-1070م) : "وأما صناعة الطب فلم يكن بالأندلس من استوعبها ولا لحق بأحد المتقدمين فيها وإنما كان غرض أكثرهم من علم الطب قراءة الكنائش المؤلفة في فروعه فقط دون الكتب المصنفة في أصوله مثل كتاب أبقرط و جالينوس... فأول من اشتهر بالطب بالأندلس أحمد بن إياس من أهل قرطبة، كما نجد في ذلك الزمان رجل من أهل حرّان كان يُعرف بالأندلس بالحرّاني وله مجرّبات حسان في الطب وقد اشتهر بقرطبة وحاز الذكر فيها، كما اشتهر كذلك يحيى بن إسحاق وهو أحد وزراء عبد الرحمان الناصر لدين الله في صدر دولته وكان أبوه نصرانيا طبيبا مجرّبا صانعا بيده في أيام الأمير عبد الله الناصر وولّاه الولايات الجليلة وهو مسلم وقد نال عنده من الحُظوة الشّيء الجليل وقد ألّف في الطب كتابا يشتمل على خمسة أسفار ذهب فيه مذهب الروم"²، كما نجد من الأوائل فيمن اهتموا بالطب سعيد بن عبد الرحمان بن محمد بن عبد ربه حبيب بن محمد بن سالم مولى الأمير هشام الرضّي بن عبد الرحمن الداخل، وهو ابن أخ أحمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر صاحب العقد الفريد "كان طبيبا نبيلًا وشاعرا محسنًا وله في الطب رَجَزٌ جليل"³، ومنهم أحمد بن الحكم بن حفصون "كان طبيبا نبيلًا جيّد الفريضة حسن الفطنة...، كان خادما للحكم المستنصر بالله وخدمه بالطب إلى أن توفّي...، ومنهم محمد بن تميم كان ذا وقار وسكينة ومعرفة بالطب، وقد خدم الناصر والمستنصر بصناعة الطب،... ومنهم أبو الوليد محمد بن الحسين المعروف بابن الكتّاني كان عالما بالطب حسن العلاج لطيف المعافاة سريّا محببا إلى الناس"⁴.

لقد برع علماء الأندلس وضاهوا علماء المشرق بل تجاوزوهم، وهو ما نستشقه من تلك العناية والمعرفة التي حظي بها الطب من مكانة عظيمة اتسمت بخصائص الدقة والممارسة المهنية العالية التي انسلخت من ذلك التقليد الذي ساد المشرق العربي من تتبع الجزئيات كما يجسده كتاب القانون في الطب للشيخ الرئيس ابن سينا (ت 427هـ/1037م)، إذ نجد أنّ الممارسة الطبية الأندلسية اعتمدت مبدأ الكلّيات وليس الجزئيات، وأصبحت تنحو منحى التجريب والنقد والتصحيح في أمور ومعضلات الطب من عقاقير وأدوية، وهي طفرة نراها جيدة تُحسب في نطاق التجديد في المجال الطبي لدى العلماء الأندلسيون لم يصل إليها المشارقة رغم سبقهم، ويؤكد ابن رشد الحفيد

¹. كتاب الصلة، ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك، تح/ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، مصر، 1989، ج1، ص54.

². كتاب طبقات الأُمم، المرجع نفسه، ص: 78.

³. كتاب طبقات الامم، مرجع سابق، ص: 78، 79.

⁴. نفسه، ص: 80.

(ت 595/هـ 1198م)، أنّ الطب قد أصبح "صناعة فاعلة عن مبادئ صادقة، يلتزم بها حفظ صحة بدن الإنسان وإبطال المرض، وذلك بأقصى ما يمكن ...، فإنّ هذه الصناعة ليس غايتها أن تُبرئ ولا يُد، بل أن تفعل بما يجب بالمقدار الذي يجب، ثم يُتَظَر حصول غايتها".¹ لقد اعتبر ابن رشد الحفيد الطبّ صناعة قائمة على قواعد ثابتة عكس ما كان يُنظر إليها من ضروب الشعوذة والتخمين، وقد أقرّ ذلك عبد الملك بن زُهْر (ت 557/هـ 1162م)، حين انتقد العالم جالينوس (ت . مابين 200 و 218م) في قوله: "وقد كان جالينوس يجهل أشياء من أسباب ما رآه عياناً وقال في مواضع كثيرة : أنه كان يقول فيما كان لا يعرف، وأما غيره من الأطباء والفلاسفة فإنهم طمّحت همهم وعظمت عندهم أنفسهم عن جهل شيء فتكلّموا فيما هو أعلى وأشرف من أذهان البشر فوقعوا فيما لم تكن حاجة إليه، والعلم إنما هو أن يعرف الإنسان أنه مُقَصَّر لا يعلم إلا ما ألهمه الله إياه، وإنّ من الأمور ما هو أعظم من ذهن الإنسان".²

2.2 الانسلاخ من التبعية المشرقية.

لم يعد الإرث الطبي الوارد من اليونان عبر المشرق الإسلامي، هو السند المعرفي في تقرير صحة المعلومات لدى الأطباء الأندلسيون، بقدر ما أضحي الاستدلال العقلي والخبرة هما المعياران الهامان في هذا المجال الحساس، فأصبح الطب -كما ذكرنا- "صناعة فعلها العلم والتجربة... لأنه ليس يُكتفى في هذه الصناعة بالعلم دون التجربة، ولا التجربة دون العلم، بل بهما معا"³ وقد شكّل الطب النظري لدى الأندلسيين اللبنة الأولى لهذه الصناعة، ويُعدّ كتاب الكلّيات في الطب لابن رشد، والتيسير في المداواة لابن زُهْر نموذجان مهمان في تطوّر الطب بعد ذلك.

لقد ركّزت المصنفات الطبية على الأسباب والأعراض البدنية والنفسية الطارئة وطُرق العلاج منها، "ومن بين هذه المصنفات كتاب الأمراض لأبي المطرف عبد الرحمان بن عثمان الصّدّي الطليطلي (ت. 403/هـ 1012م)"⁴ كما يمكن التّنبؤ في هذا الصدد إلى مصنّين كانا لهما بالغ الأثر في زمن الطّاعون (749/هـ 750م)، أحدهما لابن الخطيب تحت مُسمّى: مُقْنَعَةُ السّائل عن المرض الهائل، ومصنّف لابن خاتمة (ت. 770/هـ 1368م) تحت مسمى: تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد. وقد عُرف غالب بن علي بن محمد اللّخمي الشّقوري من أهل غرناطة (ت. 471/هـ 1340م) بخبرته الطبية لأنّه "قرأ الطب بالمارستان في القاهرة...، وزاول العلاج على طريقة المشاركة"⁵ إذ قال في هذا المجال متكلماً عن الطّاعون: "لما كان الحُكم على الشّيء فرعاً من تصوّره، وجب أن نبين حقيقة هذا المرض. فنقول: هو مرض حادّ، حار السّبب، سُمّي المادّة، يتصل بالروح بدءاً بوساطة الهواء، ويسري في العروق، فيفسد الدّم، ويحيل رطوبات إلى السّميّة، وتتبعه الحُمى ونفث الدّم، أو يظهر عنه خُراج من جنس الطّواعين. وإذا ذكرنا حقيقته، فلنذكر سببه، فنقول: له سبب أقصى: وهو الأمور الفلكية من القُرانات التي تؤثر في العالم، حسبما يزعمه أرباب صناعة النّجوم، ويأخذّه الطّبيب مُسلّماً عنهم،

¹ . التيسير في المداواة والتدبير، عبد الملك بن زُهْر، تح/ ميشيل الخوري، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1983، ج 1، ص: 5.

² . كتاب الأغذية، عبد الملك بن زُهْر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990، ص: 149.

³ . الكلّيات في الطب، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، ص: 127، 130، 139.

⁴ . كتاب الصلة، مرجع سابق، ص: 470.

⁵ . جذوة الإقتباس فيمن حلّ من الأعلام مدينة فاس، أحمد بن محمد بن أبي العافية بن القاضي المكناسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب |، 1973، ج 2، ص: 506.

وسبب أدنى: وهو فساد الهواء الخاصّ بمحل ظهوره ابتداءً أو انتقالاً. وإذ ذكرنا سببه، فلنذكر أعراضه، فنقول: أعراضه أعراض الحُمى البوابية، أو المحرقة بجميع خواصها، ثم نفث الدّم، أو ظهور الخُراج فيما خَلَفَ الأذنين أو الإبطين ...، وإذ ذكرنا أعراضه، فلنذكر العلاج، فنقول: هو على ضربين: يُقصد به قَصْدُ التحرُّز منه قبل وقوعه،... وضربٌ يُقصد به علاج المرض بعد استقراره"¹

وهنا لابد من بيان مدى دقة الطّرح والاستنباط في قضية طبية مثل التي طرحها الطبيب محمد اللّخمي الشقوري وهو من أهل غرناطة، كيف توصل إلى تحقيق الأمور الطبية عن طريق البحث والاستنتاج ثم التأصيل والخروج بالكيفية التي يُفهم بها المرض ليوصف له العلاج المناسب في كلّ حالة، وهو منهجٌ كان سائداً عند جُلّ أطباء الأندلس، مما أهلهم إلى زيادة السّبق في هذا المجال المهم والحساس.

كما يُذكر عن أبي عثمان بن حبيب بن حُدَيْر القرطبي (ت. 342هـ/953م) أنّه كان "ماهرًا بالطب وله فيه أرجوزة مزدوجة دلّت على تقدّمه في الصّناعة الطّبيّة وتحقيقه بآراء قدماء أهلها واقتداره على التّظم ... منقبضا عن الملوك لم يخدم أحدا منهم بالطب"² ومادام أنّه كان مقتدرا على النظم - هذا دليل على تبخّره في اللّغة العربية وما جاءت به من آداب، ومثله نجد عبد الكبير بن محمد بن بقي الغافقي (ت. 617هـ/1220م)، "عارفاً بالطب مُستفتى فيه ناجح العلاج"³

3. النزعة العلمية لأطباء الأندلس.

لقد تميّز الأطباء الأندلسيون بنزعة نقدية وتصحيحية في التّأليف الطّبي ميّزتهم عن بقية من سبقوهم من الأمم الأخرى كدليل على دقّة ما توصلوا إليه، ودليل على براعتهم وعدم اكتفائهم بالتقليد وخصوصاً عن المشاركة، فعلى سبيل المثال نذكر عبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم القرطبي الطبيب (من أهل القرن 4هـ/10م) قد ألف كتاب أسماه الاختصار والإيجاز في خطأ ابن الجزّار، "منتقداً فيه الطبيب أبا جعفر أحمد بن إبراهيم بن الجزّار (ت. 369هـ/979م) بالرغم من علو كعب هذا الأخير بإفريقية زمن الأغالبة"⁴، كما ألف ابن جُلجل (ت. بعد 384هـ/995م)، "رسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطبّبين"⁵. وهذا الانتقاد لأعمال الأوّلين لا نستشف منه إلّا حرصهم الدّءوب للنهوض بالطب نحووضا يرسمون فيه لمستهم، كما يرسم الفنّان لوحته ويختتمها بختم أو ميسم أو وشم يدلّ عليه، وهو ما انتهجه أطباء الأندلس في صناعتهم للطب ونبوغهم فيه. و في آخر أيّام أبو عثمان سعيد بن البعُونش وهو من أهل طُلَيْطلة (ت. 444هـ/1052م)، انكبّ على "كُتب جالينوس وجمعها وتناولها بتصحيحه"⁶، كما نجد الغافقي (ت. 56هـ/1165م) قد عدّ كتابه في

¹. مُقْنَعَةُ السّائِل عن المرض الهائل، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب السّلماني الغرناطي، تح/ حياة قارة، منشورات دار الأمان، ط1، 2015م، مطبعة الكرامة، الرباط، المغرب، ص: 65، 67.

². الذيل والتكملة لكتّابي الموصول والصلة، أبو عبد الله الأنصاري المراكشي، تح/ إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د.ط، ج4، ص: 25.

³. نفسه، ص: 233.

⁴. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، تح/ عامر النجار، ج1، ط1996، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص: 493.

⁵. نفسه، ص: 495.

⁶. نفسه، ص: 495.

الأدوية "دستورا يرجع إليه فيما يحتاج إلى تصحيحه منها"¹ وهذا هو المهم في صناعة الطب التأصيل العلمي كما فعل الغافقي أن جعل كتابه مرجعا يعود إليه كل من احتاج التصحيح والتأصيل للمسائل العلمية الوافدة، وهذا دليل قوي على ثبات نزعتهم ومنهجهم المتبع. ومن أعاجيب الأطباء في الأندلس أنه لم يسلم من نقدهم حتى من عُرفوا في التاريخ الطبي باسمهم وصيتهم وأعمالهم مثل جالينوس وابن سينا، على الرغم من شهرتهما في الطب اليوناني والعربي، كما لم يحظ كتاب القانون في الطب للشيخ الرئيس ابن سينا باهتمام عبد الملك بن زهر فقد "ذمه وأطرحه ولم يدخله خزانة كتبه، وجعل يقطع من طُروره ما يكتب فيه نَسَخ الأدوية لمن يستفتيه من المرض"²، ويعود سبب عدم حظو كتاب القانون في الطب للشيخ الرئيس ابن سينا بعناية عبد الملك بن زهر - حسب رأينا - راجع بشكل أساس إلى تلك النزعة المعتمدة لدى أطباء الأندلس في التحرر التّهائي من التّبعية العلمية لعلماء المشرق والخروج من تلك الرقبة الخائفة، لذا نجد مثل العالم ابن زهر؛ لا يُلقب بالاً لذلك التصنيف الذي اتبعه ابن سينا، وليس احتقاراً للرجل بل تحييراً للعلم والنهوض به وعدم الالتفات للماضي الذي ربما رأى فيه تكراراً لما قاله الأولون؛ ولا يخدم بالصورة الجليّة موقف التجديد الذي كان واضحاً في كل مناحي الحياة في ذلك الوقت.

إنّ هذا الانتقاد الذي عرضه إثمًا هو نابع من قوة العلم الذي توصّل إليه أطباء الأندلس؛ ومدى اقتدارهم بهذه الصناعة وتميزهم فيها تميّزاً واضحاً، وهذا راجع لحرصهم على الرّبط بين البُعدين التعليمي والمهني، مما أدّى بهم إلى وضع المصنّفات الطبية المهمة والنافعة، وهذا ما لم يكن عند جالينوس وابن سينا، حيث افتقدا إلى البعد التعليمي في أعمالهما من أجل اكتساب المعرفة الطبية وهو بُعد مُهمّ في هذه الصناعة التي ارتكزت بشكل كبير على التجريب والنقد والتصحيح لدى علماء الأندلس في ذلك الزّمن المزدهر. بخوضهم في غمار المجهول بحثاً وتنقيباً لوضع لمسة واضحة يذكرها التاريخ وينهض بهم؛ وساعدهم على ذلك "تخصيص الدولة لهم رواتب قارة"³ وتنظيمهم في هيئة إدارية عُرفت بـ "ديوان الأطباء ... يدافع عن مصالحهم ويُسيّرهم مزوار الأطباء، وهي الوظيفة التي تولّاها الطبيب أبو جعفر الذهبي باشبيلية سنة 595هـ/1198م"⁴.

ولم يقتصر الطب على الرجال فقط، بل كانت المرأة لها الحظّ من هذه الصناعة، ونذكر على سبيل المثال نبوغ عدد غير قليل من النساء الأندلسيات فيه، حتى أن نساء الملوك كنّ في غنى عن الأطباء بالطبيبات، ويذكر أن أخت الحفيد ابن زهر الأندلسي وابنتها كانتا تطببان نساء الحاجب المنصور بن أبي عامر وأهله، وكان المنصور لا يقبل بأحد سواهما، فقد "كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة، ولهما خبرة جيّدة بما يتعلّق بمداواة النساء، وكانتا تدخلان إلى نساء الخليفة الموحي يعقوب المنصور"⁵، فحِرْصُهُنَّ على تعلّم التّوليد وهو ما كانت تحتاجه المرأة بشدّة، كان حافظاً لمزاولة هذه المهنة والتّجّاح فيها، ومما لاشك فيه أنّ مثل هذه التّهضة العلمية الجادة لا يمكن أن تخلو من اللّمسة النسوية في هذا المجال المهم والحساس.

1.3 النقلة النوعية في مجال التأليف.

¹. نفسه، ص: 501.

². عيون الأنباء، مرجع سابق، ص: 518.

³. رحلة ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد الحضرمي الأشبيلي، تح/ محمد تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص: 59.

⁴. عيون الأنباء، مرجع سابق، ص: 492، 532.

⁵. عيون الأنباء، مرجع سابق، ص: 524.

لقد عرف الطب في الأندلس تطورا مهما إذ يمكن التمييز في ذلك بين مرحلة ما قبل القرن 4هـ/10م، ومرحلة ما بعده، بالنظر للجهود التي بُذلت على يد الخليفين الأمويين عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر (350-366هـ/961-976م)، فقبل مرحلة الخلافة الأموية بقرطبة "لم يكن بالأندلس من استوعب صناعة الطب ولا لحق بأحد المتقدمين فيها، أما مرحلة ما بعد القرن 4هـ/10م، فقد ترسخت فيها كل معالم المدرسة الطبية بالأندلس، من حيث نسقية الطب وميوله النقدية والتصحيحية، وازدهار حركة التأليف، لأن في هذه الحقبة تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم، ولم يزلوا يظهرون ظهورا غير شائع في قريـب وسط المائة الرابعة".¹ وقد تنوّعت المجالات العلمية والطبية التخصصية لدى العلماء والأطباء في الأندلس؛ تبعا لتنوّع الخدمات الطبية التي قدمها أطباء الأندلس للمرضى من الأندلسيين ومن يمثل مؤسسات الدولة في أعلى مستوياتها، فقد كان الأطباء يقدمون خدماتهم إلى أمراء البلاط والخلفاء في قصورهم وما كان يُصيـبهم من وصب ونصب من جزاء مظاهر ترفهم؛ فكان الأطباء يقدمون لهم المساعدة لما عانَوْه من "التزف كالسَّهر وكثرة الأكل وتنوعه والتي أدت إلى إضعاف أجسامهم وتعرضها للوهن والمرض"²، دون أن ننسى كذلك الخدمات الطبية للأطفال وجواري الخلفاء، "فقد كان الطبيب يحي بن إسحاق، يعالج حرم الخليفة عبد الرحمن الناصر وأطفاله ويتابع حالتهم الصحية باستمرار"³، كما شملت الخدمات الطبية العامة التي كان يقدمها أطباء الأندلس للعوام من الناس وساكنة الأندلس، فهذا حُمَيْدِيُّ بْنُ أَبَانَ "من أشهر الأطباء في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، فكان يقصده عامة أهالي مدينة قرطبة طلبا للعلاج"⁴، بينما نجد أنّ الطبيب ابن مَلُوكَه النَّصْراني اشتهر شهرةً واسعةً في عهد الأمير عبد الله "حيث كان يستقبل المرضى من عامة الناس في داره مُقدِّمًا لهم العلاج؛ وقد هيأ مكانا لذلك"⁵.

2.3 مجالات الاختصاص لأطباء الأندلس.

أمّا اختصاص أطباء الأندلس فيمكن في تنوّع العلاج للأمراض الحادثة وأماكن وجودها، وبالتالي معرفة التأليف فيها، وقد وُجدت أمراض تصيب العين "كمـرض البردة وهو مرض يصيب جفن العين تحصّص أطباء الأندلس في تطبيـبه، ومنه الرَّمَدُ وهو مرض يُصِـبُ مُلتحمة العين، ومرضُ السَّبَلِ وهو عبارة عن ماء يصيب العين، والشَّعيرة وهي عبارة عن ورم يُشبه الشعيرة يكون في طَرَفِ العين، ومنه مرض الشَّرْناق، وهو زيادة في شحم الجفن، والطَّرْفَةُ نقطة حمراء تصيب العين اثر ضربة مفاجئة للعين أو حادث، والوَرْدَنَجُ، وهو مرض يُصِـبُ العين فيمنع ما يسيل منها من الدَّمع..."⁶، كذلك اختصّ أطباء الأندلس في علاج لبعض الأمراض التي تُصيب الرأس، "كالاختلاج، وهو مرض يُصِـبُ الرأس من جزاء تعرّضه لرياح شديدة البرودة، والشَّرْسَامُ، وهو مرض يُصِـبُ الدِّماغ؛ يكون مصحوبا بحمى شديدة، والشَّقِيقَةُ، ألم شديد يصيب شَقِيَّ الرأس وكثيرا ما يكون مصحوبا بالدُّوار..."⁷، وقد كان تحصّص أطباء الأندلس كذلك في

¹. طبقات الأطباء، مرجع سابق، ص: 64.

². ظُهر الإسلام، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي، مصر، ب.ط، 2013، ج3، ص: 132.

³. عيون الأنباء، مرجع سابق، ص: 481.

⁴. طبقات الأطباء، مرجع سابق، ص: 93.

⁵. الإنجازات العلمية لأطباء في الأندلس، نجاد عبّاس زينل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص: 283.

⁶. الإنجازات العلمية لأطباء في الأندلس، مرجع سابق، ص: 286، 287.

⁷. نفسه، ص: 288، 289.

الأمراض التي تصيب الأذن، "كالطَّرشِ والطَّنِينِ والأورامِ اللَّاحِقَةِ بها، وكذا أمراضَ اللِّثَّةِ والأسنان، والأمراض التي تُصيب الصَّدر، والبطن، وأمراض المثانة والجهاز التناسلي، والأمراض الجلدية، كالْبَرَصِ والبَهَقِ، والدَّمَامِلِ، والجَرَبِ والقُوبَاءِ..."¹، كما عرف الطب في الأندلس فئة الجراحون؛ وهم فئة من الأطباء تقوم بالعمليات الجراحية، وقد كان جراحوا العرب متفوقون كثيرا عن جراحى العصور الوسطى، وقد كانت تُعرف هذه المهنة عند أطباء المسلمين بصناعة الجراحة الطبية، "وكان رائدها آنذاك (خَلْفٌ بنُ عَبَّاسٍ الرَّهْرَاوِي) (325هـ/936م، 404هـ/1013م) العربي المسلم من أهل قُرطبة، وكانت له في مهنته هذه أهم موسوعة طبية تُدعى: التَّصْرِيفُ لمن عَجَزَ عن التَّأليف... وظلَّ لهذا الكتاب مكانة ككتاب مدرسي للجراحة قرونا كثيرة، في مدرستي ساليرنو ومونبوليه وغيرهما من مدارس الطب، وكان فيه صُوَرٌ لآلات طبية تأثر بها آخرون من الغرب وكانت مرجعا بعد ذلك لعلماء الغرب"².

خاتمة.

إنَّ المتبحر الجاد في التراث الأندلسي، أو ذلك المبتدئ - مثلي - الذي يحاول جاهدا أن يخوض لأوّل مرّة في دراسة أهم حقبة في تاريخ الإسلام، ليجد نفسه مندهشا أمام المشاهد التي يصادفها وقد صنعت التاريخ وسطّرت حروفه عبر الزمن، بالرغم مما قاساه الأندلس من تشتت وانقسام، إلّا أنّ تلك الصفحات المشرقات، ما فتئت تصل بنورها إلينا تباعا عبر التاريخ، وكأنها تحاول استنهاض الهمم من جديد ولعلّي أراها حاولت ذلك بالفعل...

إنّ الفترة التي دُرست في هذا المقال، قد سلّطت الضوء نوعا ما على أهم حقبة في تاريخ الأندلس، حقبة صنعت الفارق عبر التجديد العلمي الحاصل في المجال الطبي، في حقبة ضننا أنها كانت للانحطاط والخذلان على جميع الأصعدة، والتي أراد نفر من المفكرين أن يلصقوها بها بقصد أو بدون قصد. إلّا أنّ الأمر لم يكن كذلك، فقد شهدت هذه الحقبة انتعاشا لحركية التأليف في مجالات عديدة وأهمها المجال العلمي وعلى رأسها الطب، ويعود هذا الانتعاش إلى تظافر جملة من العوامل وأهمها :

- رعاية الأمراء والسلاطين للعلماء وحماية حقوقهم الفكرية، عبر تشييد المراكز العلمية، ولم يكونوا عالة على العلم، بل كانوا هم أنفسهم أهل علم باطلاعهم على الثقافة العلمية ومسايرتها. وهذا ما يُقدِّمُ الأمم ويصنع قوتها وبقائها.
- لم يكن الأندلسيون مجرّد مغلوب مُهتَم بتقليد الغالب، بل برزت النظرة الأندلسية القائمة بحد ذاتها والمنفصلة عن وشائج التقليد وأغلال التبعية في سائر العلوم، بعد انتقالهم من المرحلة البدائية التي كانوا يُترجمون فيها العلوم، إلى مرحلة النضج بفهمهم لهذه العلوم وإعادة بنائها حسب نزعتهم التجديدية، وقد أصبح الاستدلال العقلي والخبرة هما المعياران الأساسيان في الإبداع الطبي، مما أدى بفلذات الأكباد أن تأتي إلى الأندلس كطلّاب للعلم. وهذا دليل على نضج العلم وامتلاكه بالنسبة لهم.
- برع الأطباء الأندلسيون في التأليف والتأصيل لصناعة الطب، من أجل وضع بصمتهم في التاريخ كعلماء؛ صنعوا مجد الأندلس باجتهدهم وسبقهم لمختلف العلوم الطبية والجراحية، فكانت مساهماتهم يَسْمَعُ بها القاصي والداني باختلاف العُصور، وباتت

¹. نفسه، ص: 290، ..، 293.

². التصريف لمن عجز عن التأليف، خلف بن عباس الزهراوي، تح/ عبد الله السعيد، ط1، وزارة الثقافة، عمّان، الأردن، 2000، ص: 17.

مؤلفاتهم العلمية منارات يُستضاء بها لدى الغرب؛ يدرسونها ويُدرسونها في جامعاتهم ومعاهدهم ومدارسهم المتخصصة، وهذا دليل على التمكن والريادة في هذا المجال المهم في حياة البشرية جمعاء.

ولعلنا من المناسب أن نشير إلى أهم النتائج التي ميّزت تلك الحقبة (موضوع الدراسة) وكانت كالآتي:

- اعتماد أطباء الأندلس على المشرق كان اعتماد نقل خبرة علمية وليس تقليد، بدليل أنهم برعوا وزادوا على تلك العلوم التي نقلوها واهتموا بها، ولو كان تقليدا لما لاحظنا الفرق في مؤلفاتهم وتصنيفهم الطبي واللّمسة التجريبية التي ميّزتهم عن الأمم الأخرى وليس المشاركة فقط.
 - الروح العلمية في التأليف من جرّاء دقة التجريب والاستنباط ومعرفة دقائق الأمور الحادثة من حيث الأمراض وطرق الوقاية منها باجتنابها، أو العلاج منها والشفاء من عللها، وهذا راجع للمنهج الفريد الذي اتبعه الأطباء الأندلسيون في متابعة الأمراض وتدوينها وتصنيفها، وهذا المنهج الدقيق لم يكن موجودا بشكل عمليّ دقيق؛ حتى مع أشهر الأطباء ذائعي الصيت أمثال جالينوس وابن سينا وغيرهم ...
 - التفرد والجديّة في أخذ القرارات العلمية الهامة في مجال الأمراض المستعصية والحادثة كالجُدري والطّاعون مثلا. مما يدل على تمكنهم في هذا المجال عبر القبض على مواطن العلل و بيان أسبابها والتوصّل إلى أدوائها بمنهج علمي رصين.
- في الأخير يكمن حلّ مشكلتنا، بمدى الاستجابة لفائدة الإرث الطبي لعلماء وأطباء الأندلس، وذلك من خلال مصنفاتهم وكتبهم التي ألفوها، وقد صنعت الفارق في ذلك الوقت، ومدى فاعلية هذه المؤلفات في نهضتنا النهضة العلمية الجادة، علما أنّ هذا الإرث كان إلى وقت قريب محط أنظار الغرب الذي استطاع أن ينهل من تلك العلوم عبر بناء تصوره العلمي - وهذا هو المهم- وقد نهضوا بعلومهم من جرّاء هذا التصوّر. وهذا ما أردنا أن يكون مقترحا لما نراه جديرا بالاهتمام؛ حول بعث هذه الروح العلمية الخاملة من جديد عبر إعادة الصياغة بالتنقيح والتأليف، برؤية العصر الحديث حفاظا عليها من جهة، ومن جهة أخرى، دفعها لها بسواعدنا لتواكب متطلبات عصرنا الجديد. فهل من مُجيب ...

